كلمة الدكتور حكمة هاشم (١)

سيدي صاحب المعالي والرياسة ، سيدي صاحب الدولة ،

سادتي أجلاء الأساتذة ،

ليس أصدقَ في أداء الحمد من صوت امرئٍ لا يرى لنفسه عنواناً على فضل مثل ظفره بأصواتكم ؛ فليكن هذا الصدق وحدَه شفيعَ صاحبه إليكم إن عيَّ بيانه تلقاءَ الثناء على كرمكم ، وقصَّر لسانه عن اللهج بشكركم . إني كلما رجعت البصر فيما أوليتموني من شرفٍ سامٍ بدعوتي إليكم — لمزاملتكم أبد الدهر فأنتم أبد الدهر مخلَّدون — كبر على نفسي مبلغ اجترائها . ولولا يدٌ رفيقة محسنة بُسطت إليَّ منذ عامين لتشدَّ أزري في قرع بابكم ، وخيالةٌ حبيبة أثيرة أراها تطلُّ عليَّ من وراء الغيب وهي تُطيف بجمعكم في هذا الأسبوع الذي حال فيه الحول على انتقالها الى الملأ الأعلى (٢) ، لما ظننتُ أن في وسعي الاستئذانَ عليكم والجلوسَ بين يديكم .

إن لهذه القاعة في خاطري صورةً فريدة : فقد نعمتُ فيها ، ضُحى ربيعٍ ضاحك (٣) ، بمجلسٍ أنيسٍ طويل مع علامة الشام الكبير المرحوم محمد كردعلي . ولما انصرفتُ على التفيئة ، لم أجد ما أدونه عنه في مذكرتي غير قولي : « رجل ملء العين والنفس ! » ... لطالما ملأ هذا الشيخ الشابُّ عيني ونفسي بجمالٍ جليلٍ أثناء اختلافي اليه في النادر ، ولكني ما رأيت له كيومئذٍ خدَّين أنضر

(١) ألقاها في الجلسة التي عقدت لاستقباله في ٢٥ آذار سنة ١٩٥٤ بعد انتخابه عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي .

(٢) نعي الأستاذ الجليل أول رئيس لأول مجمع علمي في الشرق العربي يوم الخميس ثاني نيسان ١٩٥٣ = ١٧ رجب سنة ١٣٧٢ .

(٣) أول أيار ١٩٥٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حمرة ، ولا ناظرين آلق لمة ! ولطالما أصغيت في النوبات الى محاضراته ؛ ولكني ما أحسست له كتلك الساعة نبرةً أوقع في المسمع ، ولا حديثاً أشهى الى القلب ، ولا سحراً أخلب للب ! وُخيّل إليّ - وهو يكرمني بلفيفة تبغ مذهبة وُيغريني بصرف دخانها صوْبه - أن حجاباً رُفع شدّ ما وقف بي التهيب دونه ، وأن جواً من عطفٍ وودٍ نبيل أخذ يلفّني بهدوء ودعة ، فأطمئن ويُسرّى عني كما « ذهب عن إبراهيم الروع » . رحمه الله ! كان مما كاشفني به من طيبّتِه إذ ذاك عزمه على أن يُزجيَ إلى حلقتكم الحصيفة الرصينة فتيةً يضعون عُصارة هممهم في سراج العلم الذي أوريتم ناره وأعليتم مناره ، ويهبون وقدة حماسهم لإذكاء شعلته التي أمدّتها شيخوختكم الوقورة بزيت الحكمة والكياسة والفضل .

أعتذر من الاعتراف لكم ، سادتي ، أن قد شاع حينئذٍ في سرّي غرورٌ عذب ؛ ولكنْ أمنية الطامع لم تبلغ بي - وأنا من هذا على أتمّ الوثوق - حدّ التشوّف إلى مقعدٍ كان يتبوّؤه قبلي إمام جهبذ ومجتهد فحل مثل رصيفكم الراحل السيد محسن الأمين العاملي رضي الله عنه وطيب ثراه . فلما شئتم ، باقتراعكم المتفضّل ، أن تُحلوا الخلف محل السلف - على ما يبدو لديهما من فارق النزعة وتباين القدر - لم أتبين سائقاً يحدو بكم على ما صنعتم غيرَ الاستمساك برمزٍ أرجو ألا أكون مخطئاً في استخراج مغزاه : وهو تكريم الأمانة للفكرة ، وتمجيد الوفاء للعقيدة مُذ تستهويان قلب من آمن بهما عن إخلاص ووعي وبصيرة ، فلا يصرفه عن « التزامهما » صارف ولا يجد عن الصدع بهما محيداً . وأحسب ، سادتي ، من نافلة القول أن أقرر لكم أن حب آل محمد (ﷺ) هو - فيما يتصل بتلك الحياة الغنية الخصبة الفياضة الصالحة التي قضاها زميلكم العظيم - نقطةُ البداية وغاية الغاية . فائذنوا لي ما دام عليّ أن أستثير أمامكم ذكراها ، أن أقف أمامكم أجيل الطرف في بعض حناياها ، واغفروا لي إن عشيت العين الكليلة عن إدراك السنى اللألاء الذي تشعُّ به مزاياها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يشاء القدر أن يولد زميلكم منذ نحو قرن (١) بشقرا هونين (من أعمال مرجعيون) في جبل عاملة ذلك الذي يُقال إن المتشيع الأول أبا ذر الغفاري اتخذه ملجأً بعد أن أخرجه معاوية الى القرى . ويشاء البخت السعيد أن يتصل نسبه بالحسين «السبط الشهيد ابن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ﷺ) وبضعته» . فكيف، والعرق دساس، لا يفعل الدم النبيل الذي تمورُ به شرايين نابغةٍ كمثله في صوْغ وجوده على النحو الذي صيغ فيه ؟ ولمَ لا يُهيب به هذا الدم إلى موالاة ما اتصل ولم يتراخَ من سلسلة الشرف والمعرفة والرياسة ؟

لقد سمع من ذويه، وهو في غضارة السن، أن مما منّ الله به على العشيرة عدمَ انقطاع العلماء والفضلاء منها في القديم والحديث . أليس فيما رووا له أنه منحدر من صلب «ذي الدمعة» (المدفون بالحلة السيفية) الذي لم تجفّ عبرته من خشية الله ؟ أوَ ليس ذلك الزاهد التقي هو ابن زيدٍ الشهيد ؟ أوَ ليس زيدٌ هذا بولد الإمام زين العابدين الذي بلغ من جلالته أنّ مسلم بن عقبة، بعد وقعة الحرّة، نكص عن أخذ بيعته ليزيد إلا على أنه «أخوه وابن عمه» على حين بايع فيها أهلَ المدينة على أنهم «عبيد رقٍّ ليزيد» ؟ أوَ ليس هو الذي تهيَّبه خمسةٌ من خلفاء بني أمية فلم يجسروا على التعرُّض لمدرسته التي أقامها في داره لتكون خلالَ خمسٍ وثلاثين سنة ينبوع الحديث والعلم والرواية لأمثال الزُّهري وسفيان بن عيينة ونافع والأوزاعي ومقاتل والواقدي ومحمد بن اسحق وكثير من الصحابة والتابعين ؟ ثم ألم يكن أجداد مترجَمنا الأقربون بعد نزوحهم من العراق موضع التقديم والتجلة في قومهم حتى لكانوا أصحاب المنزلة الرفيعة عند أمراء بلاد بشارة الممتدة من الليطاني إلى تخم صفد والمترامية بين شاطئ البحر الشامي

(١) يقول عن نفسه : «كانت ولادتي في حدود سنة اثنتين وثمانين بعد الألف ومائتين» راجع ص ١٣٤ من الرحيق المختوم . وهذا مايوافق سنة ١٨٦٥ ميلادية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الأُردنّ وطرف البقاع ؟ هذا مسجد قريته الجامع يعيد عليه رسم بانيه جدِّ جدّه الوجيه الفقيه المتقن السيد موسى بن حيدر المكنى بأبي الحسن فيؤخذ برآه وهو يؤم الأميرَ الجليل ناصيف بن نصار في صلاة الجمعة ووراءه خلق لا يُحصى من أهل الأصقاع المجاورة . وهذا أبو جدّه الأدنى عمدة الرؤساء السيد محمد الأمين يُروى له عنه أن واليَ عكا أحمد الجزار لم يجد أحداً سواه يفاوضه على عودة أهل البلاد الذين فرّوا في وجهه لما نهب مالهم واستصفى عقارهم وأحرق خزائن كتبهم . لكأني بالصبيّ وهو يستمع الى خبر الشيخ الصافي النحيزة (الذي وضع ابنه رهينةً على وعدٍ قطعه ومع ذلك لم يسلم من أذى الجزار) تغرورق عيناه بالدمع لغدر الطاغية بالذي ما نكث له بعهد ، ولكنه لا يلبث أن تشرق أساريره بشراً ويشمخ عرنينه فخراً مذ يعلم حسنَ تلطف الفتى الطليق للوالي ونجاحه في فك إسار والده الذي جُزي بنفيه إلى دمشق جزاء سنمّار ...

إن هذا الفتى النبيهَ الجريء هو السيد عليٌّ جدُّ السيد محسن . ولعل الحفيد الصغير كان يداخله زهو بالغ من سيرة الشاب الهمام المقدام . ألم يتلمّح من ثنايا تلك السيرة وجه صاحبها الرائع فيتعرفَ فيما يطالعه منه ما ورثه من مخايل النجابة وبُعد النظر والحزم ؟ أوَلا يُراه – في دامس المحنة – يضرب بحديد بصره في حاشية الجزار فيتخير لصداقته أميراً مصرياً يعقد به أواصر المودة ويتساقى معه في مكتبه رحيق المعرفة ، حتى اذا دار بالجزار وبخليفته سليمانَ الدهر ألفاه – في شخص عبد الله باشا – مقتعداً سريرَ عكا فيفدُ عليه ويجد عنده الحُظوة والرعاية ؟ أما الحظوة فأعظم بها بادرةً يوم أعلى الصديق كعب صديقه في الفقهاء : أن كان له الفَلَج عليهم في إيجاد مخرج ليمينٍ كادت تُحرّم على الأمير زوجةً حبيبة ! وأما الرعاية فناهيك بالصوّانة ضيعةً وافرة الغلة زهيدة الخراج يُقطعها الصديق صديقه ؟ وليس من ذنبه بعد ذلك ان جاء الحساد على وَغرٍ في الصدر مكنون – يدُسون السُمّ للمنعَم عليه في قهوة البن ، وأكبادهم تتلظى موجدةً وكيداً ! ..

في ذلك الجو المليء بالمآسي والمفاخر والمحامد دينًا ودُنيا ، تتفتح مُخيلة السيد محسن بن السيد عبد الكريم : أنَّى تلفت ذهن الغلام اليافع لم يُبصر إلا مواكب « الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا » ! فيمَ إذن لا يجتذبه نداء مناديهم وقد قرع سمعَه من أغوار التاريخ ؟ وعلامَ لا يتخذ عُدَّته فيغذّ السير للحاق بركبهم والوقوف في صفهم ؟ ألا ليُهْرَعْ إلى مدارس ناحيته فلينكبَّ على كتاب الله وحديث رسوله ، وليجهز نفسه بعلوم الآلة التي قيل له إنها لها بمثابة المفاتيح . هذا هو يتأبط ابن الناظم والرضيَّ والجاربردي والملا جامي والدسوقي والدماميني والشيرواني وأمثالَ تلك المتون والشروح الصارمة فيمضي فيها نظراً وتعليقاً واستخلاصاً [1] . وها هو ذا يجوِّد الذكر الحكيم فيرتل خاشعاً قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ويقف طويلاً عند قوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرَكم تطهيراً » . ثم ها هو ذا يفتح تفسير الطبريّ فينال من نفسه ما رواه من قول إمام الهدى في عليٍّ كرم الله وجهه : « إن هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم » ، وينظر في مستدرك الحاكم فتهتز جوانحه لما خوطبت به فاطمة : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين فداكِ أبي وأمي ؟ » فإذا قرأ في خطبة الوداع : « إني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهلَ بيتي » ، استبان له الدرب ، ونذر حياته للسلوك فيه على هُدى الكتاب العزيز وهوى العترة الطاهرة :

« حبي لآل المصطفى خالط لحمي ودمي »

... ...

« هذا لساني دائبٌ في نصرهم وقلمي »

« حتى تُوارى في ضريـ ـحي بعد موتي أعظمي »

(١) كتب في أثناء ذلك مؤلفاً في النحو ومنظومة في الصرف وحاشية على « المطول » وأخرى على « المعالم » ، وابتدأ في جمع كتابه « معادن الجواهر في علوم الأوائل والأواخر » على نحو الكشكول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن آفاق شقرا وتبنين وهونين ومجد لسليم أضيق من أن تتسع لمطامع الشاب النابه . وهذه نسائم سُمرٌ من رأى والكاظمية وكربلاء والنجف الغروى تمرّ رُخاءً بقلبه فتهيج الشوق فيه وتبثه أمل ساكنيها الأبرار في حلوله بين ظهرانيهم . ما بال الرجل الشخيص الأيّد لا يهجم إذن على شدّ الرحال اليهم، ولو فتّ في عضده أب هرِمٌ أضرّ بعينيه الزمان، ما دام قد استخار الله بذات الرقاع ؟ إليكم السيدَ ينحدر الى صيدا فبيروت، ويركب البحر منها الى الاسكندرون ليلويَ على حلب ويخرجَ عنها الى البادية فالفرات فبغداد، ويلقيَ العصا أخيراً في النجف الأشرف . لكأني به ـ وقد بلغ الحمى إذ ذاك ـ يستخفه وجدٌ شديد وهو يصغي إلى هاتفٍ يحمل له نشيد مهيار :

أمرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكيه
آأعظماً لازلتِ من وطفاء ساكبةٍ رويّه
وإذا أنختَ بقبرهِ فأطل به وقف المطيّه
وابك المطهّر للمطهّر والمطهّرة التقيّه
كبكاء ثاكلةٍ أتتْ يوماً لواحدها المنيّه

ثم إنه ليستجيب فيبكي طويلاً إذ يذكر فاجعة العطش، وينظم من المراثي المشجية (في الحسين وأمه وأبيه وبنيه) ما يملأ ديواناً كاملاً . ثم إنه ليُطيل وقف مطيته عشر سنوات ونيفاً كي يكرعَ ويعبّ وينهلَ ويعلّ من سُلاف المعرفة «موجهاً إلى تحصيل العلم ـ كما يقول ـ همة أعلى من الضُّراح [1] وعزمة أمضى من بيض الصفاح» ! ...

في هذا الطوْر من حياة زميلكم تغنى بضاعته ماشاء الله أن تغنى، وتطولُ باعه في الدراية والنظر . إنه لا يكتفي أن يقرأ المنطق والفرائض والأصول

(١) في القاموس المحيط : الضُّراح كغراب البيت المعمور في السماء الرابعة [كذا ولعله تحريف « السابعة »] .

ـ سطحاً وخارجاً ـ على أيدي مشيخةٍ أعلام كالهمداني والخراساني والأصفهاني ومحمد طه نجف وغيرهم من أئمة العرب والعجم . بل هو يشرع في التأليف ـ على كثرة الهموم والعيال ـ فيحبر مجلداتٍ في الفقه والتوحيد والأخلاق ، ويجمع كتباً في التاريخ والحديث والجدل، حتى يطبق أساتذته على أنه « ترقى من حضيض التقليد الى أوج الاجتهاد » .

بيد أن لواعج الشوق الى الديار تبرح بزميلكم قبل أن يهدف الى الاربعين ، فلا ضير عليه وقد نال بغيته من دار هجرته ، أن يرجع الى الوطن حاملاً معه مشعل دعوته . ولأمرٍ ما يعزم أن تكون عاصمةَ تلك الدعوة دمشق . مذ ذاك يتخذها سكناً لا يبرحه اللهم إلا لحجٍ أو منسك أو إقامةٍ يسيرةٍ في مسقط رأسه[1] . ومذ ذاك تستعد هذه المدينة السمحة لشهود نشاطٍ شيعيٍ منقطع النظير . فكأنَّ الزمان شاء لبني هاشم ـ خلال خمسين سنة كاملة ـ أن يعيدوا مع بني عمهم من ولد مروان حسابَ التقاصِّ في دار أموية ! . .

* * *

لست أقوى ، سادتي ، على تناول هذا النشاط الهائل في تفصيله ولا مجمله . وبحسبكم لتصوُّر الحرج الذي داخلني من هذا الشأن أن تعلموا أن مجمعكم ـ زاده الله بسطةً في العلم ـ بعث لي من أجل إعداد هذه الكلمة بسبعةٍ وخمسين مجلداً[2] من مؤلفات الشيخ ... أذكر أن قد ورد يومئذٍ على البال موقف

---

(١) من شعره الحسن في ذكرى دمشق قوله (الديوان ج ١ ص ٩٨) :

لله أيامي بجلق ، والصبا ... غضٌّ ، وعودي للنوى مالانا !
كم في رياض النيربين ودمر ... مرأىً يروق فيطرد الأحزانا !
حيث الخمائل ناضراتٌ ، بينها ... بردى تسيل مياهه غدرانا .
أرض يريك الخلد شاذروانها ... أرأيت مثل الخلد شاذروانا ؟

(٢) جاء في ترجمته التي كتبها بخط يده والتي هي محفوظة في خزانة المجمع العلمي العربي أنه « ألف في أنواع العلوم ما يزيد على مائةٍ وعشرين مجلداً أكثرها مطبوعة » (راجع الجزء الرابع من المجلد السابع والعشرين للمجلة تشرين الأول سنة ١٩٥٢).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المعاصر إذ أحجم عن تلخيص مذهبه « الوجودي » لمجلة « لايف » في مقال مُقتَضَبٍ طلبته اليه . ولكن هل من سبيلٍ للإحجام عن تلبية طلبتكم ؟

تسمحون لي إذن ، أيها السادة ألاّ أخوض في جزء كبيرٍ من ذلك التراث ، وأن أكتفيَ فأقولَ فيه ما قيل في كتب حجة الإسلام الغزالي من أنها : لو وُزّعت على أيام عمره ، لأصابَ كلَّ يوم منها عدة كراريس ! بيد أني إن اضطررت للمرور مسرعًا بتلك المجاميع اللطيفة [1] التي ضمَّ فيها المؤلف طرفًا الى طرف بعض الأخبار المتصلة بعلَم مذكور أو حادثةٍ شهيرة – مهما تحتمل تلك الأخبار من نقد – فما يليق بي أن أتجاوز عن كتبٍ ثلاثة تعكس الى حدٍ كبير لمةً من طراز تفكيره .

وأحب أن أقدم الكلام على آخر هذه الكتب عهداً في تاريخ حياته أعني كتاب « نقض الوشيعة » [2] . لمّا خاض موسى جارُ الله التركستاني في « نقد عقائد الشيعة » ، برز له زميلكم – رحمه الله – يدرأ مطاعنه الجارحة . وكان لا بد ، لدفع ما أُلصق بالمذهب من تهم ووصمات ، أن يجيء الكتاب على الأسلوب

(١) مثل رسائله المنونة : « الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد » (١٣٣١ = ١٩١٣) ، « ابو فراس الحمداني الأمير العربي الشاعر المشهور » (مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م) ، « ابو نواس » (مطبعة الاتقان ١٣٦٦ = ١٩٤٧) ، « دعبل الخزاعي » (الاتقان ١٣٦٨) وفيها كلام طويل عن تائيته الكبرى الشهيرة في أهل البيت ، وكذلك « عجائب أحكام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقضاياه ومسائله » (الاتقان ١٣٦٦) الخ ... على أنه يجب أن يُخصَّ بالذكر كتابه : « لواعج الأشجان في مقتل الامام الحسين » (عدة طبعات – لا سيما الثالثة – بصيدا ١٣٥٣) وهو مجموع من مصادر تاريخية متفرقة كالطبري وابي الفرج الجوزي والمسعودي وابن نما والصدوق وغيرهم ، ومذيل بكتاب « أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار » .

(٢) مطبوع بدمشق (ابن زيدون ١٣٦٠ = ١٩٥١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الجدلي [1] . وأنتم تعرفون ما ربما انطوى عليه هذا الأسلوب من « منطق العواطف » الذي يجعله الميزانيون مرادفاً لـ « تمويهات الفرض والهوى » (أرجو أن تعفوا عن هذه الإشارة ، فالتعبير لمناطقة « بورروﭬال ») . والحق أن ذلك الكتاب ـ على الرغم من هذا التحفظ ـ ليروع قارئه بإيمان المجتهد الكبير وسعة إحاطته وقوة حجته ودامغ برهانه . حتى إنه ربما قاده لإعادة النظر في مواقف كان في نفسه منها شيء كأمر « التلاعن والتطاعن » و « عصمة الامام » و « التقية » و « نكاح المتعة » وما الى ذلك . وأشهد أن المرء ، في كثير من المواضع التي يبدو عليها أن ظاهر الحق في جانب الخصم ، لا يلبث أن يخرج ميالاً الى العكس بعد سماع الرد .

---

(١) كان السيد – رحمه الله – طويل الباع في الجدل . حتى لربما خاض في خصومات المعتزلة والأشاعرة وأبدى رأيه البارع في معضلات فلسفية كتلك التي دارت عليها المناظرة بين الأشعري والجبائي في وجوب الأصلح على الله (راجع معادن الجواهر ج ٢ ص ٢٠ – ٢١) . ومن ذلك أيضاً ما جرى له مع نقيب الأشراف بمصر وذكره في رحلته الحجازية : فقد عجب السيد محسن لأهل السنة حين يتعلمون أصول الفقه مع أن باب الاجتهاد عندهم مسدود ! فأنكر عليه النقيب ، وجرت بين الرجلين مساجلة . فلما أقام السيد الحجة عليه وبسط شروط الاجتهاد المطلوب توفرها في المجتهد ، قال له الخصم : ولكن من شروط الاجتهاد تسليم أهل العصر لصاحبه . فكانت كلمة الفصل جوابه له : « لو أن نبياً أرسل الى قوم فكذبوه ، اكان يقدح ذلك في نبوته ؟ ولو أن اهل عصر سلموا باجتهاد رجل وهو ليس بمجتهد، أكان ذلك يجعله مجتهداً ؟ فسكت » (المصدر نفسه ص ٣٠٣). ونحن نظن أن هذا من الأساليب الخطابية . ولقد كان في وسع الخصم أن يجيب عن مثل هذا الاستفهام الانكاري بالايجاب وهو مطمئن كل الاطمئنان . وإلا فما المعيار في أهلية الرجل للاجتهاد إن لم يكن تسليم أهل الاختصاص له بذلك ؟ ومع ذلك، نرجو ألا يحمل استدراكنا هذا على محمل الانتصار الذين أوصدوا باب الاجتهاد إيصاداً نهائياً بعد المذاهب الأربعة : فاتخاذ موقف مثل هذا ابعد من ان يرد لنا على بال . كيف لا ونحن ممن لا ينكر « الرأي » و « القياس » و « الاستحسان » و « المصالح المرسلة » . وهي جميعاً اوسع من « الاجتهاد الضيق » الذي هو مقصور على « الاستنباط من ادلة الشرع » المروية .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأما الكتاب الثاني فهو «كشف الارتياب في أشياع محمد بن عبد الوهاب»[(١)]، وهو كما يتجلى من عنوانه مخصص لمناقشة المسائل التي يقوم عليها مذهب السلفية الوهابية كتحريم البدعة، وهدم القبور، وإنكار الشفاعة والاستغاثة والتوسل والحلف بغير الله والنذر والتبرك والتدخين والاجتهاد وغير ذلك من الأمور المشهورة . ولقد يعجب الناظر في هذا الكتاب لكبرى البوائق يرمي بها السيدُ خصومه مما ينقل له عن مصادر - موثوقة أو غير موثوقة - مثلُ قول إمام مذهبهم : «الربابةُ في بيت الخاطئة أقل إثماً ممن ينادي بالصلاة على النبي في المنائر !» . ولقد يداخله الدهش لتشبيه الوهابيين بالخوارج «من ثلاثة عشر وجهاً[(٢)]» ! ولكنه لن يحتاج إلى عناء كبير في كشف السر، إن هو التفت الى المقدمة فطالعته بالمقطع التالي : «الحمد لله ... وبعد، فلما ضعفت شوكة ملوك الإسلام، وكان من ذلك استيلاء الوهابيين من أعراب نجد على ... الحرمين الشريفين وهدمُ مزارات المسلمين ومنها قبةُ أهل البيت عليهم السلام ... وقبابُ مواليد النبي (صلى الله عليه وسلم) ... وجعلُ قبور عظماء المسلمين ... معرضة لدوس الأقدام ووقوع القذارات وروثِ الدواب والكلاب ... فأحرقوا بذلك قلوب المؤمنين ... جئتُ بهذه الرسالة ...» .

وأما الكتاب الثالث الذي يعدُّ واسطة العقد في تآليفه والذي أعتقد أنه من الأوابد الخوالد الشوارد في تراثنا الاسلامي فهو «الذريعة في أعيان الشيعة» . لقد كان في مشيئة السيد أن يجعل من معلمته تلك مرجعاً تاريخياً لفرق الشيعة

(١) انتهى منه بشقرا سنة ١٣٤٦ . وقدم له بتاريخ الوهابية نقلاً عن مصادر : بعضها غير حيادي كأحمد بن زيني دحلان (خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام)، وبعضها معتدل - بشهادة السيد المرحوم (راجع ص ٩) - كمحمود شكري الألوسي (تاريخ نجد)، واستمد كذلك من مصادر اخرى كرفاعة بك ناظر مدرسة الألسن (جغرافيته المترجمة عن ملطبرون) وتاريخ الجبرتي الخ ...

(٢) راجع المقدمة ص ١١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الدول الإسلامية، ولعقائدها في الأصول والفروع. غير أنه آثر أن يجتزئ باستقصاء أخبار الإمامية الاثني عشرية: علمائها، ومتكلميها، وأصوليها، وفقهائها، ومحدثيها، ومؤرخيها، ونسابيها، وجغرافييها، ومنطقييها، ومنجميها، وأطبائها، ونحوييها، وصرفييها، وبيانييها، وشعرائها، وعروضييها، وأدبائها، وكتابها، ومصنفيها في فنون الإسلام في كل عصر. على أنه لم ير أن يحشد بين أولئك من لم يقل في حقه إلا عبارة مختصرة كقولهم: ثقة، أو عين، أو صدوق، أو له كتاب، أو لا بأس به، أو ضعيف، أو من رجال أحدهم عليهم السلام، أو عالمٌ فاضلٌ معاصر، أو عالمٌ صالح، أو يروي عن فلان أو يروي فلانٌ عنه، أو نحو ذلك.

ليس من المبالغة ها هنا أن يقال عن السيد محسن ـ رضوان الله عليه ـ أنه ارتفع بهذا المؤلَّف الى مصافّ أكابر الرجاليين في تاريخنا كابن عبد البر، وابن حجر العسقلاني، وابن سعد وأضرابهم من أمثال الخطيب البغدادي وابن عساكر وياقوت الحموي وابن خلكان والصفدي ومن اليهم. ولئن كان فيه مستقصياً متتبعاً محققاً إلى الغاية التي تنوء بالوسع، فإن أصالته وميزته ـ على حسب ما أظن ـ في انتصاره الوفيّ لفضلاء أهل البيت، وإشارته المنصفة الى ما نالهم من ظلمٍ ونسبةٍ باطلة، ثم في حملته الجريئة على من عرَض لهم بالوقيعة أو التحامل.

تراه اذا ذكر قومٌ أن أبا العيناء ادعى خطبة الزهراء بعد أن منعها الصدّيق فدَكاً، أو أن «نهج البلاغة» هو للشريف الرضي، لم يحجم أن يحتجّ على النقيض ثم يقرر: «هذا باطل لا يُلتفت اليه بعد رواية الثقاة لهم وتصحيحهم إياه»(1). فاذا ما فرط من ابن قتيبة بسياق رده على الجهمية والمشبهة كلامٌ فيه إشارة الى «علم الغيب الأئمة» لم يملك السيد بعد إقامة الأدلة على الأمر أن يختم له بقوله: «لكن العداوة وإفراط الجهل والغباوة والتعصب للباطل أدت

(1) راجع مواضعَ مختلفة في أعيان الشيعة، الجزء الأول.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى هذه الافتراءات »[1] . وإذا ندّت من ابن حزم تعليقاتٌ نابية في قضية « رد الشمس على عليّ » ذهب يسوق اليه البراهين المروية في أكثر من ست صفحات متتالية ثم ردّ عليه السهمَ الى النحر بقوله : « أفيكون في صفاقة الوجه وصلابة الخدّ وعدم الحياء والجهل والتعصب والجرأة على الله ورسوله وأهل بيته أكثر من هذا ؟ »[2] . وإذا جرى للرافعيّ في « إعجاز القرآن » لغوٌ غير مهذّب في حق « الرافضة » ، لامه السيد لوماً عنيفاً على « اتقاد نار المدارة والعصبية في قلبه الذي أنطق لسانه بالفُحش وأخرجه الى سوء القول » ، وكذلك فعل بالدكتور أحمد أمين وبالأستاذ محمد ثابت المصري طوالَ مائةٍ وثلاثين صفحةً مرصوصة من كتابه[3] . ومن الطريف أنه لما عتب على أستاذنا المغربي لأنه لم يقرّظ كتبه غير المتصلة بالأدب والشعر ، لم يجد بداً من أن ينهيَ كلامه بالمنافحة الشديدة عن الشيعة ، والتعريض الساخر – على طريقة إياكِ أعني – بمذهب الحشوية قال : « ولم يُدخلوا في معتقداتهم[4] أن الله ينزل كلّ ليلة جمعة إلى سطوح المساجد[5] ، ولا أن النبي رآه ليلة المعراج بعينيْ رأسه ، ولا أن العبد مجبور على أفعاله ومثابٌ ومعاقبٌ على ما أُجبر عليه »[6] . ولعلكم ، سادتي ، أغضبتم زميلكم ذات مرة إغضاباً شديداً حتى دفعتموه لأن يقول عن مجلتكم ما ليس من الأناقة في هذا المقام إعادة روايته بمسمع منكم[7] . وحسبي في

(١) ص ٨٦ ج ١/١ .
(٢) ص ١١٤ المصدر نفسه .
(٣) ص ١٣٣ – ٢٦٤ .
(٤) الضمير راجع للشيعة .
(٥) وفي موضع آخر زاد : « راكباً على حمار بصورة غلام أمرد ... في رجليه نعلان من ذهب » .
(٦) ص ٣٥٦ ج ١ قسم ٢ .
(٧) أثناء إلقاء الخطاب ، أصر الأستاذ الجليل المغربي على ذكر النص ، فسردنا له ماجاء في ص ٣٦٠ بشيءٍ من الاقتضاب ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاعتذار لساني أن أقول: لم يكن في حياته - غفر الله له - من دمٍ مسفوح. ولكنّ في إهاب هذا الشيخ الجبار ذي الهامة الهرقلية نفساً كنفوس أولئك «التوابين» بعين الوردة الذين استماتوا في صفوف سليمان بن صُرَد والمسيّب الفزاري ثأراً لدم الحسين!

* * *

وبعد، أيها السادة، فإن أسفي شديد لأني لم أسعد بلقاء زميلكم والتعرف عليه عن قرب حتى أجلو لكم خصائص خُلُقيه وشخصيته. ولكنّ أصدقاءه وتلامذته[1] يرسمون له صورةً تستهوي الأفئدة في بساطتها وسموها على السواء.

لقد أشادوا بما عرفوا فيه من تواضعٍ وزهد بالجاه وعزوفٍ عن المنزلة واحتقارٍ للمظاهر الباطلة الفرّارة. ذكروا أنه ما بالى قطُّ متاع الحياة الدنيا فاجتزأ بما يسدُّ البُلغة ويقوم بالأوَد: كان يسعى لشأنه بنفسه، ويباشر بيده تهيئة طعامه غير حافلٍ برفاهية مأكلٍ أو مشربٍ، ولا ملتفتٍ الى زينةٍ في شارةٍ أو كسوة... كذلك شأن العظماء ينكرون ما أسماه نيتشه «فلسفة الخياطين» فلا يؤمنون أن الثوب يخلق الراهب، ولا أن الزنار المفضَّض خير من الذكر الحسن!..

ولقد صوّروا ما رأوا فيه من ورعٍ وتقوى وعفةِ يدٍ ولسانٍ، وشهدوا أن «الآلاف ذهباً كانت ترد عليه فما يمسّها ويحوّلها للحال الى وجوه الخير» بل ربما أنفق ماله على تأسيس المدارس[2] ووقفها في عصرٍ أذلَّ فيه الحرص أعناق

(١) نخص بالذكر والشكر الأستاذ الأديب وجيه بيضون، والسادة: صبحي نظام، الشيخ علي الجمال، الشيخ احمد صندوق والقائمين على المدرسة المحسنية التي تضم خزائن مكتبة المرحوم.

(٢) اشترى المدرسة العلوية بدمشق ووقفها على تعليم اطفال الشيعة الجعفرية سنة ١٣٢١ هـ. ثم سعى بعد نحو عشرين سنة، في وقف مدرسة اخرى لتعليم الاناث بذل ثمنها المحسن الكبير الحاج يوسف بيضون من خالص ماله واوصى بما يقوم بنفقاتها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرجال ... كذلك شأن الزهّد الأصفياء أزكياء النفوس يحقرون الاستكثار ويأنفون من التكالب على الرزق، لأنهم لا يقيسون الفضل بذلك المقياس العجيب الذي حدّثنا عنه يوماً أحدُ عمداء العلم وأسماه «مقياس عدد الاصفار» !

ثم هم أطبقوا على جودة رأيه وشجاعة قلبه وثباتِ جنانه وتحرره من العصبية والجمود ونهوضه بما يعتقد أنه حق .. كذلك شأن الروحانيين المخلصين لا يداورون في فكرتهم ولا يداجون ولا يصانعون ولا يتلمسون مجداً رخيصاً قائماً على تملّق العامة واسترضاء الدهماء . ذلك بأنهم أدركوا سرّ تلك الحكمة المسجدية المنقوشة في صدر تريستان وايزولت والتي تصلح شعاراً للمثاليين جميعاً من كل جلدة : «ما لا يقدر عليه السَّحَرَة ، فباستطاعة القلب أن يأتي به بقوة الحب والبطولة» !

سادتي ،

رحم الله زميلكم ما أروع سحر الانسجام في علمه وعمله ! ألم يكن ذا قلب كبير يفيض بالبطولة وبالمحبة ؟

الدكتور حكمة هاشم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net